الفصل الثالث

الكتابة فى العصر الإسلامى

مقدمة :

عرفنا فى الفصل السابق أن الكتابة كانت معروفة عند العرب فى العصر الجاهلى، وقد ذكر القرآن ذلك فى بعض آياته، يقول سبحانه حكاية عن المشركين: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [الفرقان : ٥].

الآية تبين أن أهل الجاهلية كانوا على علم بتاريخ الأمم السابقة وأخبارها، وكانوا يدونون تلك الأساطير ويملونها فى مجالسهم؛ فالنضر بن الحارث كان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلسًا فدعا فيه إلى الله تعالى، وتلا فيه القرآن وحذر قريشًا ما أصاب الأمم الخالية، خلفه فى مجلسه إذا قام فحدثهم عن رستم السنديد، وعن اسبنديار، وملوك فارس ثم يقول: والله ما محمد بأحسن حديثًا منى، وما حديثه إلا أساطير الأولين اكتتبها كما اكتتبها [١].

ويحدثنا القرآن الكريم عن العرب وهم بصدد إنكارهم لرسالة الإسلام قد طالبوا رسول الله ﷺ بأن ينزل عليهم كتابًا من السماء يقرءونه، قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا، أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا، أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاء كَمَا

---

(1) انظر : سيرة ابن هشام ١ / ١٨٠ .

زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ قَبِيلاً، أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ .... ﴾[الإسراء : ٩٠– ٩٣].

ويبين القرآن الكريم أن هؤلاء المنكرين لو نزل عليهم الكتاب الذى يطلبونه ما آمنوا قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[الأنعام : ٧].

وجاء فى شعر الشعراء الجاهليين تشبيهات يشبهون فيها الأطلال ورسوم الديار بالكتابة ونقوشها ، من ذلك قول لبيد بن ربيعة فى مطلع معلقته [الكامل]:

عَفَت الديارُ مَحلُّها فَمُقامُها ... بمنىً تَأَبَّدَ غَوْلُها فَرِجامُها

فَمَدافِعُ الرَّيّان عُرِّيَ رَسْمُها ... خَلَقاً كَما ضَمِنَ الوُحيَّ سلامُها

يشبه لبيد فى البيت الثانى آثار المنازل بكتاب فى حجارة؛ لأن " الوحى هو الكتاب، يقال: وحيت أحِي وَحْيا: إذا كتبت قال الله عز وجل: ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا﴾[مريم :١١] أراد: كتب لهم، قال الشاعر: [الوافر]:

كَوَحي صَحائف من عَهد كسرى ... فَأَهداها لأَعجَمَ طِمْطِمِيِّ

وقال جرير : [الوافر]:

كَأَنَّ أَخا اليَهود يَخُطُّ وَحياً ... بكافٍ في مَنازلِها وَلام

أراد: يكتب كتابًا "[١].

ويقول فى البيت الثامن من معلقته :

وَجَلا السُيولُ عَنِ الطُلول كَأَنَّها   زُبُرٌ تُجِدُّ مُتونَها أَقلامُها

معناه: كشفت السيول التراب عن الطلول كأنها زُبُر أى كتب لأن الزُّبُر جمع زبور وهو الكتاب، (تجد متونها أقلامها) أى يعاد عليها الكتاب بعد أن درست[٢].

وبالرغم من معرفة العرب للكتابة فى العصر الجاهلى لكنها لم تكن منتشرة بين كثير منهم، فمما يذكره المؤرخون أن الإسلام دخل وفى قريش سبعة عشر رجلاً يكتبون، وفى الأوس والخزرج أحد عشر رجلاً[٣]، وقد أجمعت كتب السيرة على أن رسول الله ﷺ جعل فداء أسرى قريش يوم بدر أن الواحد منهم يعلم عشرة من صبيان المسلمين القراءة والكتابة[٤].

جمع القرآن ورسمه :

لما ظهر الإسلام بدأت الكتابة تزدهر وتنتشر ، حيث حث الإسلام على تعلم الكتابة والقراءة، قال تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ، خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق:١ – ٥]، وقال تعالى: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾[القلم : ١]، وفى القرآن الكريم أمر بكتابة الدين، قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم

---

(1) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لأبى بكر محمد بن القاسم الأنبارى ص ٥١٩ .

(2) انظر : شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ص ٥٢٦ ، ٥٢٧ .

(3) انظر : المخطوط العربى ص ٥٠ .

(4) انظر : طبقات ابن سعد ٢ / ١٤ ، والمخطوط العربى ص ٥٠ .

بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾[البقرة: ٢٨٢].

وفى أحاديث النبى ﷺ حث على الكتابة، فقال ﷺ : " قيدوا العلم بالكتاب"[١].

وقد اتخذ النبى ﷺ بضعة كتاب يكتبون الوحى والرسائل والعهود؛ منهم: على بن أبى طالب، وعثمان بن عفان، وعمر بن الخطاب، وأبو بكر الصديق، وخالد بن سعيد، وحنظلة بن الربيع، ويزيد بن أبى سفيان، ومعاوية بن أبى سفيان، وأبى بن كعب، وزيد بن ثابت، وكان زيد من ألزم الناس لذلك، ثم تلاه معاوية بعد الفتح، فكانا ملازمين الكتابة بين يدى الرسول ﷺ فى الوحى وغير ذلك، لا عمل لهما غير ذلك[٢].

وقد حظى القرآن الكريم " بأوفى نصيب من عناية النبى ﷺ وأصحابه فلم تصرفهما عنايتهم بحفظه واستظهاره عن عنايتهم بكتابته ونقشه، ولكن بمقدار ما سمحت به وسائل الكتابة وأدواتها فى عصرهم "[٣].

وكان النبى ﷺ يدل كتاب الوحى على موضع المكتوب من سورته، ويكتبونه فيما يسهل عليهم من العُسُب[٤]، واللخاف[٥]، والرقاع[٦]، وقطع الأديم[٧]، وعظام الأكتاف والأضلاع، ثم يوضع المكتوب فى بيت رسول الله ﷺ .

---

(1) الطبرانى فى الكبير ، والحاكم فى المستدرك عن ابن عمرو .

(2) انظر : الخط والكتابة فى الحضارة العربية ص ٤٢ .

(3) مناهل العرفان فى علوم القرآن للزرقانى ١ / ٢٤٦ .

(4) العُسُب : بضم العين والسين: جمع عسيب، وهو جريد النخل المستقيمة يكشط خوصها. انظر: الوجيز [ع س ب] ص ٤١٨ .

(5) اللخاف : بكسر اللام : جمع لَخفة ، بفتح اللام وسكون الخاء : الحجارة الرقيقة .

(6) الرقاع : جمع رُقعة ، قد تكون من الجلد أو الورق .

(7) الأديم : الجلد .

وانتهى العهد النبوى والقرآن مجموع على هذا النحو، بيد أنـــه لم يكتـــب فى صحف ولا مصاحف، بل كتب منثورًا بين الرقاع والعظام ونحوها.

ولما تولى أبو بكر الصديق – رضى الله عنه – أمر الخلافة واجهتـــه أحـــداث شداد ومشاكل صعاب، منها موقعة اليمامة سنة اثنتى عشرة مـــن الهجـــرة الـــتى استشهد فيها كثير من قراء الصحابة وحفظتهم للقرآن ينتهى عددهم إلى السبعين، وأنهاه بعضهم إلى خمسمائة(١)، هال ذلك المسلمين ، وعز الأمر على عمر – رضى الله عنه – فدخل على أبى بكر، وأخبره الخبر، واقترح عليه أن يجمع القرآن خشية الضياع بموت الحفاظ، وقتل القراء، فتردد أبو بكر أول الأمر، ولكنه بعد مفاوضة بينه وبين عمر تجلى وجه المصلحة، فاقتنع بصواب الفكرة، وأنهـــا ليـــست مـــن محدثات الأمور الخارجة بل هى مستمدة من القواعد التى وضـــعها الرســـول ﷺ بتشريع كتابة القرآن.

اهتم أبو بكر بموضوع جمع القرآن فانتدب لذلك رجلاً اجتمعت فيه صـــفات ثلاث: كان من حفاظ القرآن، ومن كتَّاب الوحى لرسول الله ﷺ ، وشهد العرضة الأخيرة للقرآن.

يحكى زيد بن ثابت ما حدث معه فيقول: " أرسل إلى أبو بكر مقتـــل أهـــل اليمامة (أى عقب استشهاد القراء السبعين فى واقعة اليمامة) فإذا عمر بن الخطاب عنده، قال أبو بكر – رضى الله عنه – : إن عمر أتانى فقال: إن القتل قد استحرَّ (أى اشتد) يوم اليمامة بقراء القرآن وإنى أخشى إن استحرَّ القتل بالقراء بالمواطن، فيذهب كثير من القرآن، وإنى أرى أن تأمر بجمع القرآن، قلت لعمر: كيف نفعل

---

(1) انظر : النشر فى القراءات العشر لابن الجزرى ١ / ٥١ .

شيئًا لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ قال عمر: هذا والله خير، فلم يزل عمر يراجعنى حتى شرح الله صدرى لذلك ورأيت فى ذلك الذى رأى عمر، قال زيد : قال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله ﷺ ، فتتبع القرآن فاجمعه، فوالله لو كلفونى نقل جبل من الجبال، ما كان أثقل على مما أمرنى به من جمع القرآن ! قلت: كيف تفعلون شيئًا لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ قال: هو والله خير، فلم يزل أبو بكر يراجعنى حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر أبى بكر وعمر – رضى الله عنهما – فتتبعت القرآن أجمعه من العُسُب واللِّخاف وصدور الرجال، حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبى خزيمة الأنصارى لم أجدها مع أحد غيره : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ حتى خاتمة براءة، فكانت الصحف عند أبى بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياته، ثم عند حفصة بنت عمر – رضى الله عنها – " (١).

وفى عهد سيدنا عثمان بن عفان – رضى الله عنه – اتسعت الفتوح واستبحر العمران، وتفرق المسلمون فى الأمصار " وكان أهل كل إقليم من أقاليم الإسلام، يأخذون بقراءة من اشتهر بينهم من الصحابة؛ فأهل الشام يقرءون بقراءة أبى بن كعب، وأهل الكوفة يقرءون بقراءة عبد الله بن مسعود، وغيرهم يقرأ بقراءة أبى موسى الأشعرى، فكان بينهم اختلاف فى حروف الأداء ووجوه القراءة، بطريقة فتحت باب الشقاق والنزاع فى قراءة القرآن ... واستفحل الداء حتى كفر بعضهم بعضًا، وكادت تكون فتنة فى الأرض وفساد كبير ولم يقف هذا الطغيان

---

(1) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٩/ ١٢ ، ١٣ – كتاب فضائل القرآن – باب جمع القرآن – رقم (٤٩٨٦).

عند حد، بل كاد يلفح بناره جميع البلاد الإسلامية حتى الحجاز والمدينة، وأصاب الصغار والكبار على سواء " [1].

لما رأى سيدنا عثمان هذا الأمر قد استفحل جمع أعلام الصحابة وذوى البصر منهم، واستشارهم فى هذا الأمر، فأجمعوا أمرهم على استنساخ مصاحف يرسل منها إلى الأمصار، وأن يحرق الناس كل ما عداها، وقد عهد عثمان بن عفان إلى أربعة من خيرة الصحابة، وثقات الحفاظ، وهم: زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، فى نسخ لمصاحف.

روى البخارى بسنده أن أنس بن مالك حدثه " أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان، وكان يغازى أهل الشام فى فتح إرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم فى القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا فى الكتاب اختلاف اليهود والنصارى، فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلى إلينا بالصحف ننسخها فى المصاحف ثم نردها إليك فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، فنسخوها فى المصاحف، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شىء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم، ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف فى المصاحف رد عثمان

(1) مناهل العرفان ١ / ٢٥٥ ، ٢٥٦ .

الصحف إلى حفصة، فأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن فى كل صحيفة أو مصحف أن يحرق " [١].

وقد اختلف العلماء فى عدد المصاحف التى أرسل بها عثمان إلى الآفاق، فالمشهور أنها خمسة، قال ابن أبى داود: " سمعت أبا حاتم السجستانى يقول: كتبت سبعة مصاحف إلى مكة، وإلى الشام، وإلى اليمن، وإلى البحرين، وإلى البصرة، وإلى الكوفة، وحبس بالمدينة واحدًا [٢].

والراجح أن عدد المصاحف خمسة لا سبعة؛ لأن سيدنا عثمان أرسل مع كل مصحف قارئًا، فأمر زيد بن ثابت أن يقرئ بالمدنى، وبعث عبد الله بن السائب مع المكى، والمغيرة بن شهاب مع الشامى، وأبا عبد الرحمن السلمى مع الكوفى، وعامر بن عبد القيس مع البصرى [٣].

بهذا العمل الجليل والمهم فى تاريخ القرآن أخذ المصحف شكله الموحد فى الرسم والترتيب، وصار كل مصحف أرسله الخليفة من المدينة إمامًا يقتدى به أهل البلدة التى أرسل إليها ومن حولها، وصارت تلك المصاحف تعرف بالمصاحف العثمانية نسبة إلى سيدنا عثمان بن عفان – رضى الله عنه – وصار رسم الكلمات فيها يعرف بالرسم العثمانى، وهذه المصاحف هى أصل لكل المصاحف الموجودة اليوم. وقد حافظ المسلمون على رسم الكلمات فى المصحف كما هى فى المصاحف العثمانية الأولى، حتى لو كان فى بعضها مخالفة لما اصطلح عليه علماء العربية بعد

---

(1) فتح البارى ٩ / ١٣ – كتاب فضائل القرآن – باب جمع القرآن رقم (٤٩٨٧) .

(2) فتح البارى ٩ / ٢٥ .

(3) انظر : مع القرآن الكريم فى رسمه وضبطه وأحكام تلاوته – د / شعبان محمد إسماعيل ص ٢٢ .

ذلك من قواعد إملائية " قال أشهب: سئل مالك – رحمه الله – هل تكتب المصحف على ما أخذته الناس من الهجاء ؟ فقال: لا، إلا على الكتبة الأولى، رواه أبو عمرو الدانى فى المقنِع، ثم قال: ولا مخالف له من علماء الأمة.

وقال فى موضع آخر: سئل مالك عن الحروف فى القرآن مثل الواو والألف: أترى أن تغير من المصحف إذا وجدا فيه كذلك ؟ فقال: لا، قال أبو عمرو: يعنى الواو والألف المزيدتين فى الرسم لمعنى، المعدومتين فى اللفظ، نحو: الواو فى (أولوا الألباب)، و (أولات)، و (الربوا) ونحوه.

وقال الإمام أحمد – رحمه الله : تحرم مخالفة خط مصحف عثمان فى ياء أو واو أو ألف أو غير ذلك "[1]. وقال البيهقى فى شعب الإيمان : " من كتب مصحفًا فينبغى أن يحافظ على الهجاء التى كتبوا بها تلك المصاحف، ولا يخالفهم فيها، ولا يغير مما كتبوه شيئًا، فإنهم أكثر علمًا، وأصدق قلبًا ولسانًا، وأعظم أمانة منا، فلا ينبغى أن نظن بأنفسنا استدراكًا عليهم "[2].

ورسم الكلمات فى المصاحف العثمانية يرجع فى الأصل إلى ما كان مرسومًا فى الصحف التى جمع فيها القرآن فى خلافة أبى بكر – رضى الله عنه – وهذه ترجع أيضًا إلى ما كتب فى الرقاع بين يدى النبى ﷺ .

ورسم المصحف بذلك يمثل الكتابة العربية فى عصر ظهور الإسلام، وهو يحمل خصائص تلك الكتابة، من هذه الخصائص المشتركة بين رسم المصحف والنقوش العربية القديمة ما يأتى[3] :

---

(1) البرهان فى علوم القرآن ١ / ٣٧٩ .

(2) البرهان فى علوم القرآن ١ / ٣٧٩ .

(3) انظر : موازنة بين رسم المصحف والنقوش العربية القديمة – د / غانم قدورى حمد ص ٣٩ – ٤٢ ، والخط والكتابة فى الحضارة العربية ص ٧٠ .

١ – خلو الكتابة من الشكل والنقط: فقد جاءت الكتابة غير مشكولة، ولا منقوطة.

٢ – حذف الألف فى وسط الكلمة: من الظواهر الكتابية فى رسم المصحف حذف الألف الواردة فى وسط الكلمة فى كثير من الأحيان، ففى سورة الفاتحة وحدها الكلمات الآتية: (الرحمن = الرحمان) و(العلمين = العالمين)، و(ملك = مالك)، و(الصرط = الصراط)، والأمثلة على نحو ذلك كثيرة.

وبالرجوع إلى النقوش العربية القديمة نجد أن هذه الظاهرة لم تكن خاصة برسم المصحف، وإنما كانت إحدى خصائص الكتابة العربية فى ذلك الوقت؛ فمن الأمثلة على ذلك فى النقوش العربية الجاهلية (التج= التاج)، و (نجرن = نجران) فى نقش النمارة، و (إبرهيم = إبراهيم)، و (الحرث = الحارث)، و(سليمن = سليمان) فى نقش جبل أسيس، و (شرحيل = شراحيل)، و(ظلمو = ظالم)، و (بعم = بعام) فى نقش حران.

وقد استمرت هذه الظاهرة بعد رسم المصحف كما تدل على ذلك النقوش العربية الإسلامية، وذلك مثل: (هذا = هاذا)، و (الكتب = الكتاب)، و(جمدى = جمادى)، و (ثلثين = ثلاثين) فى نقش القاهرة، و(معوية = معاوية)، و (ثمن = ثمان) فى نقش الطائف، و (سبحن = سبحان)، و (لثبت = لثابت)، و (العلمين = العالمين) ، و (الكتب = الكتاب) فى نقش حفنة الأبيض.

ويرجع أصل هذه الظاهرة إلى الكتابة النبطية التى انحدرت منها الكتابة العربية.

٣ – رسم تاء التأنيث :

من الظواهر الكتابية التى تميز بها رسم المصحف أن تاء التأنيث جاءت مرسومة تاء مبسوطة أحيانًا، وجاءت مرسومة غير مبسوطة (هاء) أحيانًا أخرى، مثل : (رحمت : رحمة)، و (نعمت : نعمة)، و(كلمت : كلمة).

وهذه الظاهرة كانت موجودة فى الكتابة العربية قبل رسم المصحف، كما تدل على ذلك النقوش العربية القديمة؛ ففى نقش النمارة: (مدينت = مدينة، سنت = سنة)، وفى نقش جبل أسيس: (سنت = سنة) وكذلك فى نقش حران.

" ويبدو أن التوجه إلى كتابة تاء التأنيث هاء كان قد بدأ قبل الإسلام بعشرات السنين، فنجد فى نقش جبل أسيس كلمة (مغيرة ، ومسلحة) مكتوبتين بالهاء، وكتبت كلمة (سنة) بالتاء فى النقش ذاته.

وهذا يفسر لنا طريقة رسم المصحف فى كتابة هذا النوع من الكلمات، بالتاء أحيانًا، وبالهاء أخرى، وبدأت ظاهرة كتابة تاء التأنيث بالتاء المبسوطة تختفى تدريجيًا حتى زالت تمامًا من الكتابة العربية " [١].

٤ – تفريق حروف الكلمة الواحدة فى السطر والذى يليه: وقد وجد هذا فى رسم المصحف، وفى النقوش العربية الإسلامية، أما النقوش العربية قبل الإسلام، فلم يوجد فيها لقصرها، وقلة كلماتها.

٥ – رسم الهمزة : الغالب فى رسم المصحف هو رسم الهمزة على التسهيل.

وهنا يتبادر سؤال هل رسم المصحف توقيفى أو اصطلاحى ؟

(1) موازنة بين رسم المصحف والنقوش العربية القديمة ص ٤١ .

رأى جمهور العلماء على أن رسم المصحف توقيفى، لا يجوز تغييره، وتحرم مخالفته، شأنه فى ذلك شأن ترتيب سور القرآن وآياته، ولا يجوز لنا أن نقدم أو نؤخر منها شيئًا، ومن الأقوال التى تؤيد هذا الرأى إضافة إلى الأقوال التى ذكرها قبل – ما نقله ابن المبارك عن شيخه عبد العزيز الدباغ أنه قال له: " ما للصحابة ولا لغيرهم فى رسم المصحف ولا شعرة واحدة، وإنما هو توقيف من النبى، وهو الذى أمرهم أن يكتبوه على الهيئة المعروفة بزيادة الألف ونقصانها، لأسرار لا تهتدى إليها العقول، وهو سر من الأسرار خص الله به كتابه العزيز دون سائر الكتب السماوية، وكما أن نظم القرآن معظّم، فرسمه أيضًا معجز ! وكيف تهتدى العقول إلى سر زيادة الألف فى (مائة) دون (فئة) وإلى سر زيادة الياء فى (بأييد، وبأيِّكم)؟ أم كيف تتوصل إلى سر زيادة الألف فى (سعوا) بالحج، ونقصانها من (سعو) بسبأ، وإلى سر زيادتها فى (عتوا) حيث كان، ونقصانها من (عتو) فى الفرقان ؟ وإلى سر زيادتها فى (آمنوا) وإسقاطها من (باءو، جاءو، فاءو) بالبقرة ؟ وإلى سر زيادتها فى (يعفوا الذى) ونقصانها من (يعفو عنهم) فى النساء ؟ أم كيف تبلغ العقول إلى وجه حذف بعض أحرف من كلمات متشابهة دون بعض، كحذف الألف من (قرآنًا) بيوسف والزخرف، وإثباتها فى سائر المواضع، وإثبات الألف بعد واو (سموات) فى فصلت، وحذفها من غيرها، وإثبات الألف فى (الميعاد) مطلقًا، وحذفها من الموضع الذى فى الأنفال، وإثبات الألف فى (سراجًا) حيثما وقع، وحذفه من موضع الفرقان ؟ وكيف تتوصل إلى فتح بعض التاءات وربطها فى البعض.

فكل ذلك لأسرار إلهية، وأغراض نبوية، وإنما خفيت على الناس؛ لأنها أسرار باطنة لا تدرك إلا بالفتح الربانى بمنزلة الألفاظ والحروف المتقطعة التى فى أوائل السور، فإن لها أسرارًا عظيمة، ومعانى كثيرة، وأكثر الناس لا يهتدون إلى أسرارها، ولا يدركون شيئًا من المعانى الإلهية التى أشير إليها! فكذلك أمر الرسم الذى فى القرآن حرفًا بحرف .... "[١].

ومن العلماء الذين ذكروا الحكم والأسرار للزائد فى الرسم القرآنى والمحذوف وما كتب على لفظه أبو العباس أحمد بن محمد بن عثمان الأزدى المراكشى المعروف بابن البناء (المتوفى ٧٢١ هـ) فى كتابه (عنوان الدليل فى مرسوم خط التنزيل) حيث بين أن هذه الأحرف إنما اختلف حالها فى الخط بحسب اختلاف أحوال معانى كلماتها.

وقد نقل هذه المعانى الزركشى فى كتابه (البرهان فى علوم القرآن)[٢] أنقل جزءًا منها :

أولاً : الزيادة :

أ - زيادة الألف : وهى إما أن تزاد فى أول الكلمة أو فى آخرها، أو فى وسطها، فالأولى تكون بمعنى زائد بالنسبة إلى ما قبله فى الوجود، مثل: ﴿لَاَ أَذْبَحَنَّهُ﴾[النمل: ٢١]، زيدت الألف تنبيهًا على أن المؤخر أشد فى الوجود من

(1) مناهل العرفان ١ / ٣٨٢ ، ٣٨٣ .

(2) انظر : البرهان فى علوم القرآن ١ / ٣٨١ - ٤٣١ .

المقدم عليه لفظًا؛ فالذبح أشد من العذاب[١]. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَايْئَسُواْ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِنَّهُ لاَ يَايْئَسُ﴾[يوسف : ٨٧]، وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَايئسِ﴾[الرعد: ٣١]، السبب فى الزيادة لأن الصبر وانتظار الفرج أخف من الإياس، والإياس لا يكون فى الوجود إلا بعد الصبر والانتظار.

والثانى زيادة الألف فى آخر الكلمة: ويكون باعتبار معنى خارج عن الكلمة يحصل فى الوجود، لزيادتها بعد الواو فى الأفعال، نحو (يرجوا، ويدعوا) وذلك لأن الفعل أثقل من الاسم؛ لأنه يستلزم فاعلاً، فهو جملة، والاسم مفرد لا يستلزم غيره، فالفعل أزيد من الاسم فى الوجود، والواو أثقل حروف المد واللين، والضمة أثقل الحركات، والمتحرك أثقل من الساكن، فزيدت الألف تنبيهًا على ثقل الجملة، وإذا زيدت مع الواو التى هى لام الفعل، فمع الواو التى هى ضمير الفاعلين أوْلى؛ لأن الكلمة جملة، مثل: (قالوا، وعصوا) إلا أن يكون الفعل مضارعًا وفيه النون علامة الرفع، فتختص الواو بالنون التى هى من جهة تمام الفعل؛ إذ هى إعرابه فيصير ككلمة واحدة وسطها واو؛ كالعيون، والسكون، فإن دخل ناصب أو جازم مثل: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ﴾[البقرة : ٢٤] تثبت الألف.

وقد تسقط فى مواضع للتنبيه على اضمحلال الفعل، نحو: ﴿سَعَوْ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ﴾[سبأ : ٥] فإنه سعى فى الباطل لا يصح له ثبوت فى الوجود.

---

(1) إشارة إلى أول آية النمل : ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ ﴾ .

وكذلك: ﴿وَجَاءو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾[الأعراف : ١١٦]، و ﴿جَاءو ظُلْمًا وَزُورًا﴾[الفرقان : ٤]، و ﴿وَجَاءو أَبَاهُمْ﴾[يوسف : ١٦]، و ﴿وَجَآءو عَلَى قَمِيصِهِ﴾[يوسف : ١٨] فإن هذا المجيء ليس على وجهه الصحيح.

وكذلك: ﴿فَإِن فاءو﴾[البقرة : ٢٢٦]، وهو فيء بالقلب والاعتقاد، وكذلك ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ﴾[الحشر : ٩] اختاروها سكنًا لكن على الجهة المحسوبة؛ لأنه سوَّى بينهما، وإنما اختاروها سكنًا لمرضاة الله، بدليل وصفهم بالإيثار مع الخصاصة؛ فهذا دليل زهدهم فى محسوسات الدنيا، وكذلك (فاءو) لأنه رجوع معنوى.

وكذلك ﴿عَسَى اللّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾[النساء : ٩٩] حذفت ألفه لأن كيفية هذا الفعل لا تدرك؛ إذ هو ترك المؤاخذة، إنما هو أمر عقلى.

الثالث: زيادة الألف فى وسط الكلمة: وتكون لمعنى فى نفس الكلمة ظاهر مثل: ﴿وَجاىٓءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾[الفجر : ٢٣] زيدت الألف دليلاً على أن هذا المجيء هو بصفة من الظهور ينفصل بها عن معهود المجيء، وقد عبر عنه بالماضى، ولا يتصور إلا بعلامة من غيره ليس مثله، فيستوى فى علمنا ملكها وملكوتها فى ذلك المجيء، ويدل عليه قوله تعالى فى موضع آخر: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ﴾[الشعراء : ٩١] وقوله: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾[الفرقان : ١٢]، هذا بخلاف حال: ﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاء﴾

[الزمر : ٦٩] حيث لم تكتب الألف؛ لأنه على المعروف فى الدنيا، وفى تأوله بمعنى البروز فى المحشر لتعظيم جناب الحق أثبتت الألف فيه أيضًا.

وكذلك: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا﴾[الكهف: ٢٣]، الشىء هنا معدوم، وإنما علمناه من تصور مثله الذى وقع فى الوجود فنقل له الاسم فيه، من حيث إنه يقدر أنه يكون مثله فى الوجود، فزيدت الألف تنبيهًا على اعتبار المعدوم من جهة تقدير الوجود، إذ هو موجود فى الأذهان، معدوم فى الأعيان. وهذا بخلاف قوله فى النحل: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ﴾ [النحل: ٤٠] فإن الشىء هنا من جهة قول الله، لا يعلم كيف ذلك، بل نؤمن به تسليمًا لله سبحانه فيه، فإنه سبحانه يعلم الأشياء بعلمه لا بها، ونحن نعلمها بوجودها لا بعلمنا، فلا تشبيه ولا تعطيل.

ب - زيادة الواو : زيدت للدلالة على ظهور معنى الكلمة فى الوجود فى أعظم رتبة فى البيان، مثل: ﴿سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾[الأعراف: ١٤٥]، و﴿سَأُورِيكُمْ آيَاتِي﴾[الأنبياء : ٣٧]، ويدل على ذلك أن الآيتين جاءتا للتهديد والوعيد. وكذلك (أولى، وأولوا، وأولات) زيدت الواو بعد الهمزة حيث وقعت لقوة المعنى على (أصحاب) فإن فى (أولى) معنى الصحبة وزيادة التمليك والولاية عليه، وكذلك زيدت فى (أولئك، وأولئكم) حيث وقعا بالواو؛ لأنه جمع مبهم يظهر فيه معنى الكثرة الحاضرة فى الوجود، وليس للفرق بينه وبين (أولئك) كما قاله قوم؛ لانتقاضه بأوّلاً.

جـ - زيادة اليـاء : زيدت لاختصاص ملكوتى باطن، وذلـك فى تسعة مواضع[1]، قال أبو العباس المراكشى: إنما كتبت (بأييد) بياءين فرقا بين (الأيـد) الذى هو القوة، وبين (الأيدى) جمع (يد)، ولاشك أن القوة التى بنى الله بها السماء هى أحق بالثبوت فى الوجود من الأيدى، فزيدت الياء لاختصاص اللفظـة بمعـنى أظهر فى إدراك الملكوتى فى الوجود.

وكذلك زيدت بعد الهمزة فى حرفين: ﴿أَفَإِين مَّاتَ﴾[آل عمران : ١٤٤]، و ﴿أَفَإِين مِّتَّ﴾[الأنبياء : ٣٤]، وذلك لأن موته مقطوع به، والشرط لا يكون مقطوعًا به، ولا ما رتب على الشرط هو جواب له، لأن موته لا يلزم منه خلـود غيره، ولا رجوعه عن الحق، فتقديره: أهم الخالدون إن مت؟ فاللفظ للاسـتفهام والربط والمعنى للإنكار والنفى، فزيدت الياء لخصوص هذا المعنى الظاهر للفهـم، الباطن فى اللفظ.

ثانيًا : الحذف :

أ - حذف الألف :

كل ألف تكون فى كلمة لمعنى له تفصيل فى الوجود، له اعتبـاران: **اعتبار من جهة ملكوتية**، أو صفات حالية، أو أمور علوية مما لا يدركه الحس، فإن

(1) آل عمران ١٤٤ ، والأنعام ٣٤ ، ويونس ١٥ ، والنحل ٩٠ ، وطه ١٣٠ ، والأنبياء ٣٤ ، والشورى ٥١ ، والذاريات ٤٧ ، و ن ٦ .

الألف تحذف فى الخط علامة لذلك، **واعتبار من جهة ملكية** حقيقية فى العلم، أو أمور سفلية، فإن الألف تثبت.

واعتبر ذلك فى لفظى القرآن والكتاب؛ فإن القرآن هو تفصيل الآيات التى أحكمت فى الكتاب، فالقرآن أدنى إلينا فى الفهم من الكتاب وأظهر فى التنزيل، قال الله تعالى: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود : ١] وقال تعالى: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت : ٣]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾[القيامة: ١٧]، ولذلك ثبت فى الخط ألف القرآن، وحذفت ألف الكتاب.

وقد حذفت ألف القرآن فى حرفين، هو فيهما مرادف للكتاب فى الاعتبار، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْءاناً عَرَبِيّاً﴾[يوسف : ٢]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءاناً عَرَبِيّاً﴾[الزخرف : ٣] والضمير فى الموضعين ضمير الكتاب المذكور قبله، وقال بعد ذلك فى كل واحدة منهما: (لعلكم تعقلون) فقرينته هى من جهة المعقولية، وقال فى الزخرف: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[الزخرف : ٤]. وكذلك كل ما فى القرآن من الكتاب وكتاب فبغير ألف، إلا فى أربعة مواضع هى مقيدة بأوصاف خصصته من الكتاب الكلى:

الموضع الأول : قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾[الرعد: ٣٨] فإن هذا (كتاب) الآجال فهو أخص من الكتاب المطلق، أو المضاف إلى الله.

والموضع الثانى : قوله تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ﴾[الحجر : ٤] فإن هذا (كتاب) إهلاك القرى، وهو أخص من كتاب الآجال.

والموضع الثالث : قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ﴾ [الكهف : ٢٧] فإن هذا أخص من (الكتاب) الذى فى قوله: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ الْكِتَابِ﴾[العنكبوت : ٤٥] لأنه أطلق هذا، وقيد ذلك بالإضافة إلى الاسم المضاف إلى معنى فى الوجود، والأخص أظهر تنزيلاً .

والموضع الرابع : قوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [النمل : ١] هذا الكتاب جاء تابعًا للقرآن، والقرآن جاء تابعًا للكتاب كما جاء فى قوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾[الحجر : ١]، فما فى النمل له خصوص تنزيل مع الكتاب الكلى فهو تفصيل للكتاب الكلى، بجوامع كليته.

ب - حذف الواو :

تحذف الواو اكتفاء بالضمة قصدًا للتخفيف، فإذا اجتمع واوان والضم، فتحذف الواو التى ليست عمدة، وتبقى العمدة، سواء كانت الكلمة فعلاً، مثل: ﴿لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ﴾[الإسراء : ٥] أو صفة مثل: (الموءودة، ليئوس، والغاون)، أو اسمًا مثل: (داود) إلا أن ينوى كل واحد منهما فتثبتان جميعًا، مثل: (تبوءوا) فإن الواو الأولى تنوب عن حرفين لأجل الإدغام، فنويت فى الكلمة،

والواو الثانية ضمير الفاعل، فثبتا جميعًا. وقد سقطت من أربعة أفعال تنبيهًا على سرعة وقوع الفعل وسهولته على الفاعل، وشدة قبول المنفعل المتأثر به فى الوجود:

الأول: قوله تعالى: ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾[العلق : ٨] فيه سرعة الفعل وإجابة الزبانية وقوة البطش، وهو وعيد عظيم ذكر مبدؤه، وحذف آخره، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾[القمر: ٥٠].

والثانى: قوله تعالى: ﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾[الشورى : ٢٤] حذفت منه الواو علامة على سرعة الحق، وقبول الباطل له بسرعة بدليل قوله: ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾[الإسراء : ٨١]، وليس (يمح) معطوفًا على (يختم) الذى قبله؛ لأنه ظهر مع (يمح) الفاعل، وعطف على الفعل ما بعده ، وهو (ويحق الحق).

أما رسم الواو فى قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ﴾[الرعد: ٣٩] وحذفها فى: ﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾[الشورى: ٢٤] فلأن الإثبات الأصل وإنما حذفت فى الثانية لأن الذى قبله مجزوم، وإن لم يكن معطوفًا عليه، لأنه قد عطف عليه (ويحق) وليس مقيدًا بشرط، ولكن قد يجيء بصورة العطف على المجزوم، وهذا أقرب من عطف الجوار فى النحو، والله أعلم .

والثالث: قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ﴾[الإسراء : ١١] حذف الواو يدل على أنه سهل عليه، ويسارع فيه، كما يعمل فى الخير، وإتيان الشر إليه من جهة ذاته أقرب إليه من الخير.

والرابع: قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ﴾[القمر : ٦] حذف الواو لسرعة الدعاء، وسرعة الإجابة.

جـ - حذف الياء :

تحذف الياء اكتفاء بالكسرة نحو (فارهبون، فاعبدون) قال أبو العباس المراكشي: الياء الناقصة فى الخط ضربان: ضرب محذوف فى الخط ثابت فى التلاوة، وضرب محذوف فيهما، فالأول هو باعتبار ملكوتى باطن، وينقسم قسمين: ما هو ضمير المتكلم، وما هو لام الكلمة.

فالأول إذا كانت الياء ضمير المتكلم، مثل قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾[القمر : ١٦] ثبتت الياء الأولى؛ لأنه فعل ملكوتى، وكذلك قوله تعالى: ﴿فَمَا آتَانِ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ﴾[النمل : ٣٦] حذفت الياء لاعتبار ما آتاه الله من العلم والنبوة، فهو المؤتَى الملكوتى من قِبَل الآخرة، وفى ضمنه الجسمانى للدنيا ؛ لأنه فانٍ، والأول ثابت.

وكذلك قوله: ﴿فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾[هود : ٤٦]، وعلم هذا المسئول غيب ملكوتى، بدليل قوله (ما ليس لك به علم) فهو بخلاف قوله: ﴿فَلا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً﴾[الكهف:٧٠]؛ لأن هذا سؤال عن حوادث المَلك فى مقام الشاهد، كخرق السفينة: ﴿قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾[الكهف : ٧٢]، وقتل الغلام: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾[الكهف : ٧٤]، وإقامة الجدار: ﴿فَوَجَدَا

فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً﴾ [الكهف : ٧٧].

وكذلك قوله تعالى: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[البقرة : ١٨٦] حذف الضمير فى الخط دلالة على الدعاء الذى من جهة الملكوت بإخلاص الباطن.

والقسم الثانى من الضرب الأول: إذا كانت الياء لام الكلمة سواء كانت فى الاسم أو الفعل، نحو ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ﴾[البقرة : ١٨٦] حذفت تنبيهًا على المخلص لله الذى قلبه ونهايته فى دعائه فى الملكوت والآخرة لا فى الدنيا.

وكذلك: ﴿الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ﴾[القمر : ٦] هو داع ملكوتى من عالم الآخرة.

وكذلك: ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾[هود : ١٠٥] هو إتيان ملكوتى أخروى آخره متصل بما وراءه من الغيب.

الضرب الثانى: الذى تسقط فيه الياء فى الخط والتلاوة، فهو اعتبار غيبة عن باب الإدراك جملة، واتصاله بالإسلام لله فى مقام الإحسان، وهو قسمان: منه ضمير المتكلم، ومنه لام الفعل.

فالأول إذا كانت الياء ضمير المتكلم فإنها إن كانت للعبد فهو الغائب، وإن كانت للرب فالغيبة للمذكور معها، فإن العبد هو الغائب عن الإدراك فى ذلك كله، فهو فى هذا المقام مسلم مؤمن بالغيب مكتف بالأدلة، فيقتصر فى الخط لذلك على نون الوقاية والكسرة، ومنه من جهة الخطاب به الحوالة على الاستدلال

بالآيات دون التعرض لصفة الذات، ولما كان الغرض من القرآن جهة الاستدلال، واعتبار الآيات، وضرب المثال دون التعرض لصفة الذات كما قال تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾[آل عمران : ٢٨]، وقال: ﴿فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ﴾[النحل: ٧٤] كان الحذف فى خواتم الآى كثيرًا، مثل: ﴿فاتقون﴾ [البقرة : ٤١]، ﴿فارهبون﴾[البقرة : ٤٠]، و﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات : ٥٦]، ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ﴾[الذاريات : ٥٧] وهو كثير جدًّا.

والقسم الثانى: إذا كانت الياء لام الكلمة فى الفعل أو الاسم، فإنها تسقط من حيث يكون معنى الكلمة يعتبر من مبدئه الظاهر شيئًا بعد شىء إلى ملكوتية الباطن، إلى ما لا يدرك منه إلا إيمانًا وتسليمًا، فيكون حذف الياء منبهًا على ذلك، وإن لم يكن اعتباره فى الظاهر من ذلك الخطاب بحسب عرض الخطاب، مثل: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً﴾[النساء : ١٤٦] هو: ﴿مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ﴾[الزخرف : ٧١]، وقد ابتدأ ذلك لهم فى الدنيا متصلاً بالآخرة.

ويلحق بهذا القسم حذف النون الذى هو لام فعل، فيحذف تنبيهًا على صغر مبدأ الشيء وحقارته، وأن منه ينشأ ويزيد إلى ما لا يحيط بعلمه غير الله، مثل: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً﴾[القيامة : ٣٧] حذفت النون تنبيهًا على مهانة مبتدأ الإنسان وصغر قدره بحسب ما يدرك هو من نفسه، ثم يترقى فى أطوار التكوين ﴿فَإِذَا هُوَ

خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾[يس : ٧٧] فهو حين كان نطفة كان ناقص الكون، كل مرتبة ينتهى إليها كونه هى ناقصة الكون بالنسبة لما بعدها؛ فالوجود الدنيوى كله ناقص الكون عن كون الآخرة، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾[العنكبوت : ٦٤].

هذا، وقد استقصى المراكشى المواضع التى فيها حذف، وذكر دلالتها، والمواضع التى فيها زيادة وذكر دلالتها، والمواضع التى فيها إبدال وذكر دلالتها، والمواضع التى فيها وصل، والمواضع التى فيها فصل وذكر دلالة كلٍّ مما يدل على أن الرسم القرآنى توقيفى له دلالته ، وليس اصطلاحيًّا كما ذكر بعض العلماء. والله تعالى أعلى وأعلم .

الشكل والإعجام :

لم تكن الكتابة العربية فى الجاهلية منقوطة ولا مشكولة؛ لعدم حاجة العرب فى الجاهلية، وفى الصدر الأول من الإسلام إلى هذه الضوابط لمكانهم من العربية؛ فكانوا يقرءون الكتابة قراءة صحيحة معتمدين على سياق الكلام، وما يقتضيه المقام ودلالة السوابق واللواحق. ولما انتشر الإسلام واختلط العرب بالأعاجم، وتناسلوا معهم ظهر جيل جديد فشا اللحن فى كلامه، وخيف على القرآن الكريم أن يتطرق إليه اللحن، فعملوا على صيانة القرآن الكريم ولغته.

وقد روى فى ذلك عدة روايات، منها ما رواه أبو عمرو الدانى عن أبى بكر الأنبارى قال: " حدثنا أبو عكرمة قال: قال العتبى: كتب معاوية إلى زياد بن أبيه والى البصرة، أن يرسل إليه ولده عبيد الله بن زياد ، فلما قدم عليه، وكلمه معاوية وجده يلحن، فرده إلى أبيه، وكتب إليه كتابًا يلومه فيه على وقوع ابنه فى اللحن

والخطأ. فبعث زياد إلى أبي الأسود الدؤلي (المتوفى ٦٩ هـ) فقال له: يا أبا الأسود، إن هذه الحمراء (أى الأعاجم) قد كثرت وأفسدت من ألسن العرب، فلو وضعت شيئًا يصلح به الناس كلامهم، ويعربون به كتاب الله تعالى، فأبى ذلك أبو الأسود، وكره إجابة زياد إلى ما سأل، فوجه زياد رجلاً فقال له: اقعد فى طريق أبي الأسود، فإذا مر بك فاقرأ شيئًا من القرآن، وتعمد اللحن فيه، ففعل ذلك، فلما مر به أبو الأسود رفع الرجل صوته يقرأ: (أن الله برئ من المشركين ورسولِه)(١)، [قرأها بجر (ورسوله) مع أنها مرفوعة]، فاستعظم ذلك أبو الأسود، وقال: عز وجه الله أن يبرأ من رسوله ثم رجع من فوره إلى زياد فقال: يا هذا، قد أجبتك إلى ما سألت ورأيت أن أبدأ بإعراب القرآن فابعث إلىّ ثلاثين رجلاً، فأحضرهم زياد، فاختار منهم أبو الأسود عشرة، ثم لم يزل يختار منهم حتى اختار رجلاً من عبد القيس، فقال: خذ المصحف وصبغًا يخالف لون المداد، فإذا فتحت شفتى فانقط واحدة فوق الحرف، وإذا ضممتها فاجعل النقطة إلى جانب الحرف، وإذا كسرتها فاجعل النقطة فى أسفله، فإذا أتبعت شيئًا من هذه الحركات غنة فانقط نقطتين، فابتدأ المصحف حتى أتى على آخره "(٢). وقد أخذ الناس طريقة أبي الأسود، وشكلوا بها الحروف، فكانوا يضعون نقطة فوق الحرف للدلالة على فتحته، ونقطة تحت الحرف للدلالة على كسرته، ونقطة عن شماله للدلالة على ضمته، ولا يضعون شيئًا على الحرف الساكن، وإذا كان الحرف منونًا يضعون

---

(1) التوبة : ٣ .

(2) المحكم فى نقط المصاحف لأبي عمرو الدانى ص ٣ ، ٤ ، وانظر : الفهرست ص ٦٣ ، ٦٤ ، وقصة الكتابة العربية ص ٥١ ، ٥٢ ، ومع القرآن الكريم ص ٣٢ ، ٣٣ ، والمخطوط العربي ص ٧٨ ، ٧٩ .

نقطتين فوقه أو تحته أو عن شماله. " وكانوا يسمون هذه النقط شكلاً؛ لأنها تـدل على شكل الحرف وصورته، ولم تشتهر طريقة أبي الأسود إلا فى المصاحف حرصًا على إعراب القرآن الكريم، أما الكتب العادية فكان شكلها نادرًا؛ لأن المكتـوب إليهم كانوا يعدون ذلك تجهيلاً لهم، قال بعضهم: شـكل الكتـاب سـوء ظـن بالمكتوب إليه، ومن الناس من كان ينفر من الشكل بهذه الطريقة لقبح منظره، وقد عرض مرة على عبد الله بن طاهر كتاب مشكول، وكان خطه جميلاً فقـال: مـا أحسن هذا الخط لولا كثرة شونيزه، والشونيزة الحبة السوداء "[١].

كان هذا النقط الذى وضعه أبو الأسود الدؤلى هو الإصلاح الأول للكتابـة العربية بقصد ضبطها، وحفظ كتاب الله عز وجل من أن يتسرب إليه اللحن.

والإصلاح الثانى للكتابة العربية تم فى خلافة عبد الملك بن مروان؛ فقد ظـل المسلمون يقرءون فى مصحف عثمان نيفًا وأربعين سنة، ثم كثر اللحـن، وانتـشر على كثير من الألسن والأفواه، ووقع الناس فى التصحيف[٢]، فأمر عبد الملك بـن مروان الحجاج بن يوسف الثقفى واليه على العراق أن يعمل جاهدًا علـى إبعـاد أسباب اللحن والتحريف عن القرآن الكريم.

والسبب فى اختيار الحجاج لهذه المهمة أنه كان والى العراق، والعراق فى ذاك الوقت كانت موطن العلم والعلماء، فانتدب الحجاج لهذه المهمة عالمين جليلين هما: يحى بن يعمر العدوانى، ونصر بن عاصم الليثى تلميذى أبى الأسود الدؤلى؛ لما لهما

---

(1) الخطاطة ص ٥٦ .

(2) التصحيف : هو تغيير نقط الحروف المتماثلة فى الشكل ، كالباء والتاء والثاء والنون والياء ، والجيم والحاء والخاء ، والدال والذال ، والراء والزاى ، والسين والشين ، والصاد والضاد ، والعين والغين ، والفاء والقاف . انظر : مناهج تحقيق التراث – د / رمضان عبد التواب ص ١٢٤ .

من يد طولى فى فهم أسرار العربية، وإتقان فنون القراءات فقاما بـــنقط الحـــروف المتشابهة فى الرسم للتمييز بينها، وكتبت هذه النقط بنفس المداد الذى كتب بـــه المصحف؛ حتى يكون مخالفًا لنقط أبى الأسود الدؤلى[١].

والفرق بين نقط أبى الأسود، ونقط يحيى بن يعمر ونصر بن عاصم أن نقط أبى الأسود نقط إعراب، ونقط يحيى ونصر نقط إعجام.

وبذلك وجد للمصحف نقطان، وهما متعبان للكاتب والقارئ على الـــسواء، وفى الوقت نفسه مدعاة لاختلاط الكتابة على القراء، ومن أجل هذا كان لابد من عملية تيسير للكتابة العربية، فكانت المرحلة الأخيرة من مراحل تطورها، وهى التى تمت على يد الخليل بن أحمد الفراهيدى (المتوفى ١٧٥ هـــ) فى العـــصر العباســـى الأول، الذى اضطلع بمهمة تغيير نقط أبى الأسود الدؤلى بأن جعله حركات يقول المبرد: " الشكل الذى فى الكتب من عمل الخليل، وهو مأخوذ من صور الحروف، فالضمة واو صغيرة الصورة فى أعلى الحرف، لئلا تلتبس بالواو المكتوبة، والكسرة ياء تحت الحرف، والفتحة ألف مبطوحة فوق الحرف "[٢].

ولم يكتف الخليل بن أحمد بوضع هذه الرموز للحركات القصيرة فحسب، بل إن كثيرًا من الرموز الأخرى، التى نستخدمها فى الكتابة إلى يومنا هذا من صـــنعه كذلك، مثل: رمز السكون (ح) وهو عبارة عن رأس خاء صغيرة اختصارًا مـــن كلمة (خفيف)، بمعنى غير محرك، وكذلك رمز الشدة (ـّ)، وهو مختصر من كلمة (شديد)، ورمز الهمزة (ء) وهو مقتطع من رأس العين؛ ولذلك يسمى فى بعـــض

(1) انظر : المحكم فى نقط المصاحف ص ٨٧ ، ومع القرآن الكريم ص ٣٣ ، ٣٤ .

(2) المحكم فى نقط المصاحف للدانى ص ٧ ، وانظر : فصول فى فقه العربية ص ٤٠٠ ، ٤٠١ .

الأحيان (القطعة)، ولعله اقتطعه من العين لقرب الهمزة من العين فى المخرج، ولألف الوصل صاد (صـ)، وللمد الواجب ميم صغيرة مع جزء من الدال، وهكذا وضع الخليل ثمانى علامات: الفتحة والكسرة والضمة والسكون والشدة والمدة وعلامة الصلة والهمزة .وصار الكاتب يجمع بين شكل الكتاب ونقطة بلون واحد دون لبس بينهما(١) .

ومع التطور الكتابى الذى وضعه الخليل وجد من الكتاب من يلتزم الطريقة القديمة فى كتابة المصحف، ويتحرج من إدخال أى تعديل على صورة الكتابة القديمة، وفى هذا يقول أبو عمرو الدانى: " وترك استعمال شكل الشعر – وهو الشكل الذى فى الكتب، والذى اخترعه الخليل – فى المصاحف الجامعة من الأمهات وغيرها أولى وأحق، اقتداء بمن ابتدأ النقط من التابعين، واتباعًا للأئمة السالفين " (٢) .

وقال سعيد بن حميد الكاتب: " لأن يُشكل الحرف على القارئ أحب إلىَّ من أن يعاب الكاتب بالشكل " (٣) .

ومن الكتاب من رغب فى الشكل، وحث عليه؛ لما فيه من البيان والضبط والتقييد، " قال هشام ابن عبد الملك: اشكلوا قرائن الآداب؛ لئلا تند عن الصواب.

---

(1) انظر : المحكم فى نقط المصاحف ص ٤٩ ، ٥٢ ، ١٤٩ ، وفصول فى فقه العربية ص ٤٠٢ ، وقصة الكتابة العربية ص ٥٣ ، ٥٤ .

(2) المحكم فى نقط المصاحف ص ٢٧ ، وانظر : المخطوط العربى ص ٨٨ .

(3) صبح الأعشى ٣ / ١٦١ .

وقال على بن منصور: حلُّوا غرائب الكلم بالتقييد، وحصنوها عن شُبَه التصحيف والتحريف[١].

ويقال: إعجام الكتب يمنع من استعجامها، وشكلها يصونها عن إشكالها "[٢].

وقد رخص جماعة فى نقط المصاحف بالإعراب، " منهم: ربيعة بن عبد الرحمن وابن وهب، وصرح الشافعية – رضى الله عنهم – بأنه يندب نقط المصحف وشكله؛ أما تجريد الصحابة – رضوان الله عليهم – له من ذلك، فذلك حين ابتداء جمعه حتى لا يدخلوا بين دفتى المصحف شيئًا سوى القرآن، ولذلك كرهه من كرهه "[٣].

(1) التحريف : هو تغيير فى شكل الحروف المتشابهة فى الرسم ، كالدال والراء ، والدال واللام ، والنون والزاى ، والميم والقاف ، وما إلى ذلك . مناهج تحقيق التراث ص ١٢٤ .

(2) صبح الأعشى ٣ / ١٦١ .

(3) صبح الأعشى ٣ / ١٦٢ .